طغيان العاطفة في كتاب "الهجري"

إن كتابكم الجديد « أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع » يسد فراغاً كبيراً في دراسة جغرافية الجزيرة العربية وأماكنها ، وفي معرفة عالم كبير ، وسّعَ ما وصلنا عنه من معلومات آفاق معرفتنا ، وأثار لنا كثيراً مما كان سيبقى مجهولاً لولاه ؛ وان المعلومات التي وصلتنا عنه تُظهِر مدى سعة اطلاعه ، ودقة تعبيره ، وروحه الطـُلَعَة التي دفعتـــه إلى البحث والاستقصاء ، فكان من الأفذاذ الذين ساهموا باشادة صرح العـلم العتيد ، وبرفع العرب إلى المكانة الجديرة بهم ؛ وإني أرجو من الصميم ألا يقتصر أثر كتابكم على تقديم المعلومات القيمة للناس ، بل أن يمتد فيؤثر في نفوس الناس اليوم إلى البحث ، فإن هذا البدوي استطاع بروحه القوية الدافعة إلى البحث ، وخلقه القويم من الدقة والصدق ، أن يخلف هذا التراث . وما أحرانا نحن المعاصرين الذين تتوفر لنا وسائل ماديّة للبحث لم تتوفر لهذا البدوي ، أن نأخذ منه العبرة فنوقظ بذلك حاضرنا بماضينا ، ونساهم ، كما ساهم أجدادنا في بناء صرح المعرفة وفي المساهمة بتقدم الحضارة والفكر . وإذا كان هذا البدويّ قد استطاع أن يخلد اسمه بفضل ما سجله لنا من معلومات جمعها عن بيئته ، فان بامكان كثير من « متعلمينا » أن يخلدوا لاسمهم ذكراً لو أيقظوا روحهم ، واهتموا بتسجيل صادق لما يحيط بهم من أمور لغوية أو جغرافية أو اجتماعية أو غيرها .

إن المطالعة الأولى للكتاب تعزز ما نعرفه فيكم من اطلاع واسع ، ودقة في التتبع ، وحرص على الاستزادة في المعرفة ، وأمانة في النقل ؛ وقد بدت هذه الصفات باوضح مظاهرها وأجلى أشكالها في عرضكم لحياة الهجري ومؤلفاته وهو فصل قيم نرجو الله أن يمنحكم الصحة والعمر المديد لاتباعه بدراسات أخرى عن المؤلفين عن الجزيرة والحجاز ، مهد العروبة والاسلام .

وقد عرضتم بامانة الدراسات التي نشرت عن الهجري والسكوني ، ومنها الدراسة التي كنت قد نشرتها ، وقد دونتم عليها بعض الهوامش التي صوبتم فيها بعض ما فاتني،ثم أعقبتموها بدراسة الأستاذ الدكتور نصار،التي ميز فيها بين راويين كل منهما سكوني أحدهما راوية عرّام ، والثاني هو الذي أورد معلومات تختلط بالهجري .

إن الانطباع الذي تولد في ذهني ، وخاصة عند قراءتي ص ٩٤ — ٩٥ من كتابكم أنكم تندفعون في تقدير الهجري والانتقاص من السكوني إلى درجة تجعلني اعتقدانكم غلبتكم العاطفة ، في نسبة المعلومات الجغرافية إلى الهجري دون السكوني .

١ ـ ان احتراق كتب السمهودي التي أشرتم اليها في ص ١٥٢ لا ينبغي أن يتخذ دليلاً على أن كتاب « وفاء الوفاء » كتبه السمهودي من الذاكرة . ذلك أن المعلومات الواسعة ، والنصوص الدقيقة التي أوردها السمهودي في « وفاء الوفاء » لا يمكن أن تكون كلها من الذاكرة ، ولا بد انه اعتمد فيها على كتب أمامه ، ولعل هذا الكتاب قد نجا من الحريق المذكور . (ا)

أما الاضطراب الواضح فيما كتبه السمهودي عن حمى الربذة وحمى ضرية (١٥٤ - ١٥٥) فأنا افضل أن النسبة إلى عدم استيعاب طبعتي كتاب « وفاء الوفاء » لكافة مخطوطات الكتاب، وعدم التفات ناشري الطبعتين إلى هذا الاضطراب . وقد ذكرتم في ص ١٧٨ أن النسخة التي وصلت الينا من كتاب السمهودي « وفاء الوفاء » مختلة الترتيب كثيرة الأغلاط في طبعتيها اللتين حقق احداهما أستاذ جليل هو محمد محي الدين عبد الحميد ، ولكنه ـ والله ـ يتجاوز عن الجميع لم يدرك ذلك ..) إذ أن هذا الاضطراب واضح ، وهو لا ينسجم مع الدقة والوضوح اللذين تميز بهما كتاب السمهودي :

ولذلك فالأفضل نسبته إلى سوء الأصل الذي نشرت عنه الطبعتان اللتان بين أيدينا

ولا بد أن نلاحظ أن السمهودي اهتم بـ « وفاء الوفاء » بدراسة المدينة المنورة وما حولها ، فهو لذلك لم يدخل في بحثــه دراسة أواسط الجزيرة وشرقيها بالنظر لكونها خارج نطاق بحث السمهودي (ج) .

٣ – لقد ذكرتم أن ما نسب إلى الهجري ، نجده في كتاب « معجم ما استعجم » : (منسوباً إلى نكرة مجهول هو السكوني ، ورجحنا أن يكون هذا قد نقل عن الهجري ، بحيث ظن البكري أنه من كلامه ، وهو بكلام الهجري ألصق) .

إني أشعر أنكم بهذا الكلام تظهرون ميلاً عاطفياً للهجري ، كان الأجدر أن يؤجل إلى أن نكتشف معلومات جديدة أوفى ، حول الموضوع (د) .

ا – ان البكري عالم أندلسي كبير ، وهو ذو اطلاع واسع في جغرافية الجزيرة ، وفي اللغة والشعر ، وهو يعرف الهجري ، بدليل أنه أشار اليه ، كما أنه عاش في الأندلس وهو الاقليم الذي عرف علماؤه أبا علي الهجري ، فكيف نبرر نسبته المعلومات التي قدمها عـــن بعض مناطق الجزيرة إلى السكوني وليس إلى الهجري ؟!

ب – إن السكوني قد يكون مجهولاً لدينا الآن على ضوء معلوماتنا المحدودة ، وقد يسعد الحظ باحثاً فيكشف عنه معلومات تجعله معروفاً ، وقد يصبح أعرف من الهجري .

أما وصفه بانه نكرة ففيه قسوة فيما أرى ، نعم إنه قد لا يكون حفي باهتمام العلماء والرواة الذين وصلتنا مؤلفاتهم ، ولكن ألم يهمل هؤلاء العلماء ذكر كثير من الأفذاذ ؟! ثم كيف نصفه بانه نكرة ، وقد نقل عنه اثنان من أعظم مصادرنا في جغرافية الجزيرة ، وهما ياقوت والبكري ؟! ألا يكفي نقل البكري عنه النصوص الكثيرة بنفي القول بأنه ليس بنكرة ؟!

د – إن الارتباك الذي يواجهه الباحث في تاريخ الفكر العربي عند محاولة البت في نسبة أية معلومات إلى واحد من سلسلة الرواة المتعددين ، يجعلنا نضطر إلى الأخذ بنظر الاعتبار : أسلوب تفكير الراوية ، ونطاق اهتمامه ونجعلها معياراً مهماً ، ولا أقول أوحد ، في نسبة المعلومات إلى صاحبها؟!
إن القسم الذي وصلنا من نوادر الهجري يظهر أنه من أصحاب التعليقات والنوادر ، وانه كان يهتم باللغة والانساب ، أما اهتمامه بالأمور الجغرافية فقليل . وإن النصوص التي نقلتموها في الكتاب عن نوادر الهجري تؤيد ان هذه المعلومات قليلة ، وأنها غير مرتبة جغرافياً ، وأنها عرضية ، في حين أن ما نقله البكري عن السكوني يظهر أن السكوني لم يهتم كثيراً باللغة والنسب ، بل اهتم بذكر الأماكن ، وانه كان ذا عقلية جغرافية منظمة ناضجة ، إذ انه يصف البقاع وما فيها من أماكن حسب تسلسل مواقعها الجغرافية ، ويهتم بكل ما له علاقة بالأرض ومن عليها ، ولم يُعِر اللغة والشعر والنسب اهتماما.

ثم ان الذين نقلوا عن الهجري ، ممن افضتم في بحثهم افاضة تستحق كل ثناء ، لم ينقلوا عنه إلا النصوص اللغوية أو النسبية ، اللهم ما عدا السمهودي الذي تذكرون ان كتبه احترقت .

أفلا يجعلنا كل ذلك نرجح أن هذه المعلومات القيمة مصدرها السكوني ، وان الهجري لم يهتم بالأماكن إلا عرضاً ؟! وأن البكري وياقوتاً هما أصوب من السمهودي في نسبة هذه المعلومات إلى السكوني دون الهجري الذي كانا يعرفانه (هـ) ؟!

انني لا أريد أن أنتقص الهجري وعلمه العظيم ، ولا أريد أن أقلل من تقديري العظيم للمعلومات التي نقلها البكري وياقوت عن أسماء السكوني ، وكل الذي أريده أن نترك الباب مفتوحاً للباحثين كيما يجدوا أدلة أكثر قطعية لنسبة هذه المعلومات (و) .

وإني إذ أقدر كتابكم الجليل الذي يسد فراغاً كبيراً ، أرجو أن أبدي لكم رأيي في استعجالكم بما قد منحتوه من اسناد عاطفي للهجري على حساب السكوني أو من نقل عنه السكوني (و) .

صالح أحمد العلي

تعليق :

لقد أوردت كتاب استاذنا العلامة الجليل الدكتور صالح بنصه ، ولم ابح لنفسي حذف حرف واحد منه،رعاية لحق الدكتور وحفاظاً على ما تقضي به الامانة العلمية ، مع ان فيه من الجمل والعبارات المتعلقة بي ما كنت أربأ بنفسي ان انشره في صحيفة اتولى تحريرها ، الا انني مع ذلك اقابل ثناء استاذنا وان لم يكن في محله – بالنسبة إلي – اقابله بأن انظر اليه نظرة تخالف ما سينظر اليه القراء بها ، انني اعتبره حافزاً من حوافز العمل ، ووسيلة من الوسائل التي يتخذها العلماء في سبيل الاستزادة من العلم ، ومواصلة السير لبلوغ ما يمكن بلوغه من اهداف نافعة .

ولهذا فإنني استميحه العذر فيما لو علقت على هذه الرسالة التي أحلها من نفسي محلة كريمة . وكل ما أريد تعليقه يتعلق بابداء وجهة رأي في جانب من الجوانب ، ربما كان لي العذر ، أو معي طرف من الحق – ولا اقول الحق كاملا – فيما ذكرته في كتاب « ابو علي الهجري » ، وهو جانب لا يضير علامتنا الدكتور أن يخفى عليه ما قد يتضح لغيره منه .

١ – لم أقل إن السيد السمهودي كتب ما كتب من الذاكرة ، بل قلت: بأنه اختصر كتابه المطول ، قبل إكماله ، واختصاره له هو ما قرأناه في كتابه المطبوع « وفاء الوفاء » . وهذا ما قلته بالنص الحرفي ، في كتاب « أبو علي الهجري » – ص ١٥٤ – – : (ولعله كان يدوّن ما فيه من أبحاث بصورة موجزة ، ثم يعمد إلى ما سماه الأصل فيتم تلك الأبحاث ، بل نص في المقدمة على هذا قائلاً : سألني من طاعته ُغنم ، أن أختصر تأليفي المسمى « اقتضاء الوفاء ، بأخبار دار المصطفى » اختصاراً مع توسط غير مفرط ، هذا مع كونه بعد لم يُقَدّر إتمامه ، بتكامل أقسامه ، لسلوكي فيه طريقة الاستيعاب) . اهـ

فإذن أنا أتفق مع رأي الدكتور بأن ما كتبه لم يكن من الذاكرة وإنما كان من كتاب بين يديه .

ب – أما عن الاضطراب الواقع في كتاب السمهودي ، فإن القسم الذي عولت فيه على نقل كلام الهجري ، اعتمدت على نسخة خطية جيّدة الخط ، قديمة ، موجودة في مكتبة الحرم المكي – في مكة المكرمة – ووجدت فيها الاضطراب والخلل الذي أشرت اليه ، مما ينفي تبعته عن الناشرين .

ج – إن السمهودي – وإن خصص كتابه لدراسة المدينة المنورة وما حولها – إلا أنه استطرد فأورد فصلاً طويلاً عن الأحماء – جمع حِمى – ومنها ما هو خارج عن حدود المدينة ، مثل حمى فيْد الواقع في شرق نجد ، ومثل حمى ضرية ، وقد حرص على أن يورد كلام الهجري مع تلخيص يسير ، يتضح مما أوردناه في كتاب الهجري ، ونضيف إلى هذا أن السمهودي – رحمه الله – أورد – فيما خصصه للمدينة وما حولها – كلاماً كثيراً لا صلة له بمواضعها ، بل هو بعيد عنها ، وقد يشير إلى بعض ذلك ، مما لا نرى حاجة لتفصيله .

د – يا سيدي الدكتور ، قد تطغى العاطفة طغياناً غير محمود ، ولكنني أحاول جهدي أن أكون بعيداً عن طغيانها ما وسعني البعد ، ولهذا فإنني أرى في كلام الدكتور : مِنْ أنني أظهر ميلاً عاطفياً للهجري ما يحتاج إلى وَقفَة قصيرة ، بجانب وقفة أستاذنا عند البكري ، والسكوني .

١ – لا شكّ أن البكري يعرف الهجري ، وأنه اطلع على بعض كتبه ، أو اطلع على كتب نقلت عنها ، وإن لم يصرح بنقله إلا في موضعين ذكرتها في كتاب الهجري .

٢ – أما انه واسع الاطلاع فى جغرافية الجزيرة ، فيصح هذا إذا اعتبرنا الاطلاع على المؤلفات الكثيرة في ذلك الموضوع ، والنقل منها ، إذا اعتبرنا هذا سعة اطلاع ، أما إذا نظرنا بعين التحقيق ، فاننا نحتاج إلى أدلة وبراهين قد تعوز قاصري الباع – مثلي – بالنسبة للعالم الأندلسي الجليل أبي عبيد البكري ، فأنا – حتى ساعتي هذه التي أكتب فيها هذه الكلمة – لا أعرف عنه سوى أنه واسع الاطلاع على ما ألف عن الجزيرة ، ولكن

تلك السعة تضيق شيئاً فشيئاً حينما يحاول تحديد موضع من مواضع الجزيرة ، حتى تتضاءل ، بل تنعدم ، ذلك أنه — والله يعفو عنه — ينقل النصوص على علاتها ، بل على عللها — جمع علة — بحيث لا يستطيع التمييز بين صحيحها وسقيمها ، فجاء في كتابه « معجم ما استعجم » من ذلك بالهوام ، والطوام، وجاء في غيره من الكتب التي حاول فيها أن يصحح أخطاء بعض علماء المشارقة — كأبي علي القالي — بالعجائب والغرائب .

ولندع الحديث عن الكتاب الأول فهو مما لا يتسع له هذا التعليق الموجز، ولنشر إشارة مجملة إلى الأخير في كتاب « التنبيه ، على أوهام أبي علي في أماليه » إلى موضعين :

لقد حاول أن يصحح البيت المشهور :

وشِمْتُ البارقاتِ ، فقلتُ : جيدتْ جِبالُ النّيرِ ، أو مُطِرِ القَليبُ

فأتى بالمضحك المبكي !

وأراد أن يخطىء القالي حينما أورد بيت الشاعر اليمامي يحي بن طالب الحنفي :

أحقاً — عباد الله — أن لستُ ناظراً إلى قرقرى — يوماً — وأعلامها الغبر

حينما قال : الصحيح : الخضر ، فأتى بالمعجب المطرب بالنسبة لجزيرة الأندلس الخضراء التي يعيش فيها ، وبالمغرب حقاً بالنسبة إلى اليمامة ، حيث قرّر أن التشوق إلى الأعلام الغبر غير صحيح ، ونسي أن ذلك أبلغ في الشوق ، وأقوى في الحبّ مع مطابقته للواقع بالنسبة لليمامة ؟!

٣ — إن البكري — رحمه الله — حشا كتابه بنصوص لم يذكر مصدرها، ومنها ما نسبه إلى غير أهله،وفي الكتاب الذي أكملت تأليفه عن «أبو اسحاق الحربي ، وكتابه عن « مناسك الحج ومنازل مكة » وهو حسنة من حسنات أستاذنا الدكتور صالح ، ما يكشف للقارىء جانباً من جوانب البكري ،

حيث نجد فيه نصوصاً أوردها البكري برمتها غير منسوبة ، وأخرى منسوبة وهي في كتاب الحربي ، الذي عاش قبل البكري باكثر من ٢٠٠ سنة .

د – بقيت ملاحظة واحدة ، تتعلق بتخطئة السمهودي فيما نسبه إلى الهجري ، وبتصويب البكري ، أما ياقوت الحموي فلم ينقل عن السكوني – السكوني المعروف عنده – شيئاً مما ورد منسوباً إلى الهجري .

وهذه الملاحظة تنحصر في : مَن هو السكوني ؟!

إن ما نقله البكري عنه في (خيبر) و (فدك) إذا صحّ أنه نقل عنه ، هو لرجل عاش قبله بزمن ، وهو مما لم ينسب إلى الهجري .

وما نقله الحموي عن السكوني ، وهو غير سكوني البكري ، نجده في كتاب الحربي منسوباً إلى رجل آخر ، سأعود في بحث خاص للحديث عنه ، وعن كل ما نسب للسكونيين والفضل في ذلك لأستاذنا الدكتور صالح العلي .

هـ – ويأتي الحديث عن السكوني الذي يقول عنه أستاذنا الدكتور : (قد يسعد الحظ باحثاً فيكشف عنه معلومات تجعله معروفا) . وهذا حق غير أن كتاب الحربي قد كشف لنا جانباً أوضح أن كثيراً من المعلومات التي نسبها البكري إلى السكوني ، ونسبها ياقوت إلى السكوني ، – وهما متغايران برأي أستاذنا الدكتور حسين نصّار – إن كثيراً من تلك المعلومات المنسوبة إلى السكونيّين ، بصرف النظر عنهما ، هل كانا معروفين أو مجهولين ، ليست لهما ، بل لغيرهما ممن هو أقدم منهما ، فماذا يضيرنا حينما نصف أحدهما – وهو سكونيّ البكري بأنه نكرة ، ونحن نرى أن جُلّ ما نسب اليه يرجع إلى زمن أقدم من زمنه ؟.

و – يا سيدي الدكتور : إن كتابي عن الهجري ليس وليد العجلة كما ورد في تعليقكم عليه ، لقد أمضيت في إعداده ودراسته زمناً لا أريد أن أزيد عن الحديث عنه على القول بأنني جمعت ما أمكنني جمعه مما يتعلق بموضوعه في مدة تزيد على عشر سنوات ، ويكفي دليلاً على ذلك أنني نشرت في مجلتي « اليمامة » في شهر ذي الحجة سنة ١٣٧٢ وصفاً لمخطوطة القاهرة من

(البقية على الصفحة ١٨٣)

مَعَ القُرّاءِ.. فِي أَسْئِلَتِهِمْ وَتَعْلِيقَاتِهِمْ

حول الشاعر الأحول : يعلى الشكري الأزدي

وكتب الأخ الفاضل أحمد بن غرم الله الفقيه من بلدة بلجرشي ،يقول بأنه وجد أبياتاً أوردها نقلاً عن كتاب « الأغاني »لشاعر أموي هو يعلى الأحول ابن مسلم ، وقال ان ذلك الشعر ورد فيه أسماء كثير من الأماكن التي يوجد بعضها في بلاد غامد منها : شدوان وشرا وحزنـة ، فهل هذا الشاعر قصد هذه الجبال الواقعة في بلاد غامد وزهران وخثعم ؟ وإلى أي قبيلة ينتمي هذا الشاعر من القبائل المعروفة الآن ؟

« العرب » : يحسن أن نورد نبذة من ترجمة هذا الشاعر نقلاً عن كتاب

تتمة (طغيان العاطفة)

نوادره ، مع ترجمة موجزة له ، لا تخلو من أخطاء . فكيف يصح وصفي بالاستعجال وأنا مكثت أكثر من خمس عشرة سنة في تأليف الكتاب ؟!

يصح أن أوصف بالعجز ، وبالقصور ، وبالجهل ، وهي صفات لا يضيرني أن أوصف بها ، بخلاف الاستعجال الذي لا يطابق واقع الحال .

ومع كل ما تقدم فإنني أعتبر هذا التوجيه النافع القوي مـن أستاذنا الدكتور صالح من أقوى الحوافز على مواصلة البحث ، واعتبر – في الوقت نفسه – دليلاً قوياً على أن علماءنا يولون ما ينشر – وإن لم يبلـغ درجة الجودة والأصالة والقوة ، من الاهتمام والعناية والرعاية ، ما قد يبلغه – في المستقبل – الدرجة التي تحله من نظراتهم وآرائهم محل القبول ، وهـذا ما نسعى اليه .

حمد الجاسر